



على ذلك شهيداً: ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما يبث به رسالته.

وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله، ونصره تصراً خارجاً عن قدرته وفدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والنأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول، من آمن، واتبع الحق، صرح بذلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك، فأخبار الله عنه أن عنده شهادة، أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة، لُرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في

بذلك، أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويبتاعها، ويجعل القوارع بأطرافها، تنبيهاً لهم قبل أن يحتاجهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافق، ﴿وهو سريع الحساب﴾ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت، فهو قريب.

﴿٤٢-٤٣﴾ وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار \* ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ برسولهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يجاربون الله ويبازرونه ﴿فله المكر جميعاً﴾ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي: هومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسيها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئاً، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين، لا للكفر وأعماله.

﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا﴾ أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به، ﴿قل﴾ لهم - إن طلبوا

أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتنيتها الملائكة، ويجعل الله لشبوتها أسباباً، ولحجوها أسباباً، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة. وجعل التعرض لذلك، سبباً للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿٤٠-٤١﴾ ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإتاما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ أولم يروا أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابتهم ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به، ﴿إما نرينك﴾ إياه في الدنيا، فتقرر بذلك عينك، ﴿أو نتوفينك﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك ﴿فإتاما عليك البلاغ﴾ والتبيين للخلق.

﴿وعلينا الحساب﴾ فتحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، ونشيتهم أو نعاقيهم.

ثم قال متوعداً للمكذبين: ﴿أو لم يروا أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: يفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أمورهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد

تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم أمروا به، ونهوا عنه، فإذا بين لهم الرسول ما حجة الله **﴿فيضل الله من يشاء﴾** ممن لم يتفقد للهدى، ويهدي من يشاء ممن اختصه برحمته.

**﴿وهو العزيز الحكيم﴾** الذي - عزته - أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل هذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها.

إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرتوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم، فحينئذ قد اكتسبوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

**﴿٥ - ٨﴾** ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور \* وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم \* وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد \* وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد \* يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم، **﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾** أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتسويبعه، **﴿وذكرهم**

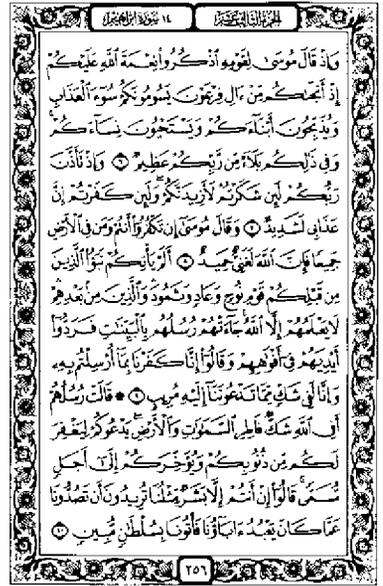
الحميد﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعر الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

وليدل ذلك على أن صراط الله، من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتدبيراً، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان، توعد من لم يتفقد لذلك، فقال: **﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾** لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم **﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾** فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة.

**﴿ويصلون﴾** الناس **﴿عن سبيل الله﴾** التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه وعلى السنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة، **﴿ويغفونها﴾** أي: سبيل الله **﴿عوجاً﴾** أي: يحرصون على تهجينها وتقييحها، للتفجير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

**﴿أولئك﴾** الذين ذكر وصفهم **﴿في ضلال بعيد﴾** لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربهما، فأبى: ضلال أبعد من هذا!!!، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويمسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

**﴿٤﴾** **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾** وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولا **﴿إلا بلسان قومه، ليبين لهم﴾** ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من



استشهادهم لعدم خبيرتهم ومعرفةهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد،  
والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي مكية

**﴿١ - ٢﴾** **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد \* الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد \* الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد \* يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي، إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: **﴿بيأذن ربهم﴾** أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله ومعونه، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم.

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: **﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾** أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتغل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر **﴿العزيز**



ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم﴾ متوعدين لهم - ﴿لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعتنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمنعونهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟! هل هذا إلا من عدم الدين والروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مبكرهم بالرسول إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه، ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ بأنواع العقوبات.

﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ ذلك أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء ﴿لمن خاف مقامي﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وخاف وعيد﴾ أي: ما توعدت به من عصائي، فأوجب له ذلك الانكشاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿واستفتحوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقته بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فالله حلِيم

عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بأية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسولهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجزامون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يا قوم إن كان كبير عليكم مقامى وتذكيري بآيات الله، فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ الآيات.

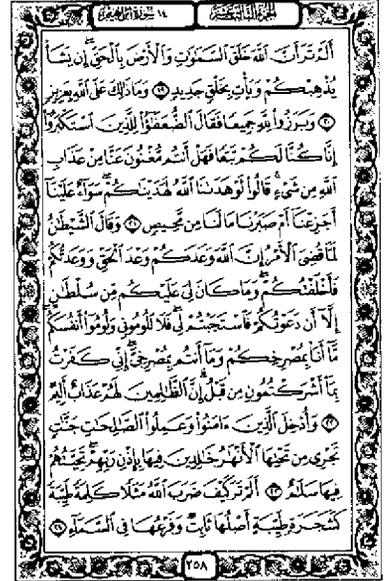
وقول هود عليه السلام قال: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾.

﴿ولنصبرن على ما آذيتونا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً لتلاجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

﴿وعلى الله﴾ وحده لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكّلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿١٣ - ١٧﴾ ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ \* ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد \* واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد \* من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد \* يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على



ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فأنونا بسلطان مبین﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وعلى الله﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويشقون به في تسير ذلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يجبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سلبا﴾

أي: شيء يمنعتنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونته المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كالإشارة من الرسل





﴿وسخر لكم الأنهار﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها .

﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزممنتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، ﴿وسخر لكم الليل﴾ لتسكنوا فيه ﴿والنهار﴾ مبصراً، لتبتغوا من فضله .

﴿وأتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي : أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيتكم وحاجتكم، مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ أي : هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجري، على العاصي، مقصر في حقوق ربه، كفار نعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به .

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، آتاء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات .

﴿٣٥﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أي : ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال : ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ أي : الحرم ﴿آمناً﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرأً، فحرمه الله في الشرع، ويشر من أسباب حرمة قدرأً ما هو معلوم، حتى إنه لم يرُدْ ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب القيل وغيرهم .

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال : ﴿واجنبي وبني أن نعبد الأصنام﴾ أي : اجعلني وإياهم، جانباً بعيداً عن عبادتها، والإلمام بها، ثم ذكر الموجب خوفه عليه وعلى بنيه، بكثرة من اقتنوا وابتني عبادتها، فقال :

﴿تمتعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بِنِافِعِكُمْ ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي : مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير .

﴿٣١﴾ ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي : قل لعبادي المؤمنين آمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك : ﴿يقيموا الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾ أي : من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سراً وعلانية﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة، كالزكاة ونفقة من تحب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها .

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي : لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا هبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يفيقه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر .

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ إن الإنسان لظلوم كفار ﴿يخبر تعالى : أنه وحده﴾ الذي خلق السماوات والأرض ﴿على تساعهما وعظهما، وأنزل من السماء ماء﴾ وهو : المطر الذي ينزله الله من السحاب، ﴿فأخرج﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المختلفة الأنواع ﴿رزقاً لكم﴾ ورزقاً لأنعامكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي : السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر بأمره﴾ فهو الذي يستر لكم صنعتها، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تصدونه .

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن : «الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي» .

﴿ويضل الله الظالمين﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها، ونييم القبر وعذابه .

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ يقول تعالى - مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش، وما آك إليه أمرهم : ﴿الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم .

﴿و﴾ صددهم غيرهم حتى ﴿أحلوا قومهم دار البوار﴾ وهي النار، حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالاً على قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الرقعة .

﴿جهنم يصلونها﴾ أي : يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وبئس القرار﴾ .

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي : نظراء وشركاء ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ أي : ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعوهم إلى عبادتها، ﴿قل﴾ لهم متوعداً :

﴿٣٦﴾ ﴿رَبِّ إِنهِن أَصْلَلن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: ضلوا بسببها، فمن تبعني على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فإنه مني﴾ لتمام الموافقة، ومن أحب قوماً وتبعهم التحق بهم.

﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ وذلك أنه أتى بـ «هاجر» أم إسماعيل وابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو في الرضاع، من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا داع ولا محيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال - متضرعاً متوكلاً على ربه: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي﴾ أي: لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام، وباقى بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: ﴿بواد غير ذي زرع﴾ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

﴿ربنا ليقموا الصلاة﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه، ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ أي: تحبهم وتحب الموضوع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل عمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي، وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سراً عجبياً جاذباً للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته

تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والشمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تديرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها، ما هو مقتضى علمك ورحمتك، ﴿وما يخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿٣٩﴾ ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين، أجل وأفضل، ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي: لقريب الإجابة عن دعاءه، وقد دعوته، فلم يجيب رجائي، ثم دعا لنفسه ولذريته، فقال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴿فاستجاب الله له في ذلك كله، إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعده إياه، فلما تبين له أنه عدا الله تبارك وتعالى.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ ﴿ثم قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ مهطعين مقنمي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين، يقول تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ حيث أمهلهم وأدّر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يُملي للظالم ويمهله ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ

القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ والظلم - هاهنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربه، وظلمه لعباد الله، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿مهطعين﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مقنمي رؤوسهم﴾ أي: رافعياً قد غلّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٦﴾ ﴿وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال \* وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال \* وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ أي: صِف لهم صفة تلك الحال، وحذّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله، ﴿فيقول الذين ظلموا﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها، ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ أي: زدنا إلى الدنيا، فإننا قد أبصرنا، ﴿نجب دعوتك﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿وننتع الرسل﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كذبة في هذا الوعد ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾.

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد تبين حشركم في إقسامكم،

وكذبكم فيما تدعون، ﴿٥٠﴾ ليس عليكم قاصرٌ في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿سكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ من أنواع العقوبات؟ وكيف أحلَّ الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضرَبنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا يتفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

﴿وقد مكروا﴾ أي: المكذبون للرسول ﴿مكرهم﴾ الذي وصلت إراداتهم، وقدر لهم عليه، ﴿وعند الله مكرهم﴾ أي: هو محيط به علماً وقدره، فإنه عاد مكرهم عليهم ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾.

﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسول بالحق، وبمن جاء به - من عظمه - لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿مكروا مكرًا كِبَارًا﴾ لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.

ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسول، لينصر باطلاً، أو يبطل حقاً، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً، ولم يضرُوا الله شيئاً، وإنما ضرُوا أنفسهم.

﴿٤٧ - ٥٢﴾ ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ \* يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار \* وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد \* سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار \* ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب \* هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب ﴿يقول تعالى: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في

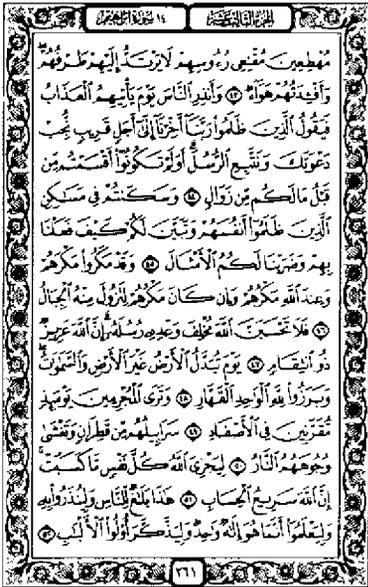
الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولاً، على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه ﴿عزيز ذو انتقام﴾.

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة، ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ تبدل غير السموات، وهذا التبديل بتبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسرى وتمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صافصفاً، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه.

﴿وبرزوا﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿لله الواحد القهار﴾ أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتديبره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿وترى المجرمين﴾ أي: الذين وصفهم الإجمام، وكثرة الذنوب، في ذلك اليوم ﴿مقرنين في الأصفاد﴾ أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

﴿سرايلهم﴾ أي: ثيابهم ﴿من قطران﴾ وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها، وتتن ريجها، ﴿وتغشى وجوههم﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿النار﴾ أي: تحيط بها، وتصلها من كل جانب، وغير الوجه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظمناً من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾ من



خير وشر بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إن الله سريع الحساب﴾ كقولته تعالى: ﴿أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعبس عليه.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:

﴿هذا بلاغ للناس﴾ أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿ولينذروا به﴾ لما فيه من التهريب من أعمال الشر، وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحديته، ما صار ذلك حق اليقين، ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في تركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وأراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غصاً طرياً، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى